رجل من بنى حنيفة

رجل من بنى حنيفة-١

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له : ثمامة بن أثال ، سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – **فقال له :** " ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

قال : عندى يا محمد خير. إن تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت .

حتى إذا كان الغد ؛ قال : " ماذا عندك يا ثمامة ؟ " :

قال : ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى كأن بعد الغد .

فقال : " ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

فقال : عندى ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ..

....

(حديث صحيح أخرجه البخارى و آخرون)

يضع الإسلام أسساً إنسانية للتعامل مع الأعداء والخصوم ، تظل منارة هادية لكل من يريد الهداية والسلوك الإنسانى القديم ، وفى الوقت ذاته ترد على من يظلمون الإسلام ويتهمونه بتهم غير حقيقية ، وتلصق به ماليس فيه .

إن العلاقة مع الآخر ، ولو كان عدواً لدوداً تأخذ صورة غير مسبوقة فى التاريخ الإنسانى ، حين نقيسها بمقاييس الإسلام التى تقدم السلام والمودة والخير، على الحرب والكراهية والشرّ....فما انتشر الإسلام بالسيف كما يردد المفترون الظالمون ، ولا ساد العنف والاضطهاد كما يرجف المفترون الطاغون .

وهذه القصة النبوية الشريفة تقدم لنا حدثاً واقعيا جرى على أرض نجد فى قلب الجزيرة العربية ، حيث قبيلة من أشهر قبائلها وهى قبيلة بنى حنيفة ...فقد بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يروى أبى هريرة – رضى الله عنه – مجموعة من الفرسان إلى نجد أو أرسل خيلاً قبل نجد ، أى نحو نجد كما يقول أبو هريرة . وكان إرسال هذه المجموعة لتأمين المسلمين و اتقاء شرّ من يهددّهم بالإغارة أو شن الحرب ، واستطاع الفرسان أن ينجحوا فى مهمتهم ، ويأسروا " ثمامة بن أسال " سيد أهل اليمامة وهو من بنى حنيفة ..وكان عليه أن يخضع لما يخضع له الأسرى وفق مفهوم هذا العصر و تقاليده وقيمه فى التعامل مع الأسرى .

بالطبع لم يكن هناك آنئذ أماكن احتجاز للأسرى أو سجون أو معتقلات يوضع فيها أسرى العدوّ ، ولكن التحفظ على "ثمامة" اقتضى ربطة بسارية، أى عمود من سوارى المسجد حتى لا يهرب ، ثم يرى المسلمون فيه ما يراه رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وكما نرى فالقصة تجرى فى تسلسل قصصى يشوقنا إلى معرفة بقية الأحداث التى تتصاعد شيئاً فشيئاً .....فالشخصية المهمة فى القصة هى شخصية زعيم بنى حنيفة وسيّد أهل اليمامة ، وهو ليس رجلاً عادياً أو بسيطاً ، وقد جىء به أسيراً إلى المدينة المنورة ثم ربطه فى سارية المسجد حتى يُنظر فى أمره ، فماذا جرى له ؟

لقد خرج الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ثمامة ، وسأله :

"ماذا عندك يا ثمامة ؟"

و السؤال هنا يعنى أكثر من معنى أو أكثر من مستوى دلالى ، ولكنه يريد بصفة عامة أن يستخرج ما فى باطن الرجل من رأى ورغبة . كأنه – صلى الله عليه

وسلم – يسأله : أى شىء عندك يا ثمامة ؟ أو ماذا تظن أن أفعل بك يا ثمامة ؟ وبالتأكيد ، فإن ثمامة ، أو من في مثل موقفه الصعب ؛ لابد أن يرجو الخير عند النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى اشتهر بالعفو عمن ظلم ، و الرحمة بالضعيف ، والإحسان إلى المسىء .....

وهذه صفات يشهد له بها أعداؤه قبل أحبابه ، حيث يرونه إنساناً فى خلقه، إنساناً فى تصرفاته، إنساناً فى مشاعره وعواطفه، على عكس ما يصوره به المتعصّبون الأشرار الذى يعيثون فى الأرض فساداً فيقتلون الضعفاء و يحتلون أراضيهم ويحرمونهم من عقيدتهم و عبادتهم و شريعتهم و ينهبون بلادهم و خيراتهم ....

محمد – صلى الله عليه وسلم – يسأل ثمامة عما يظن أن يفعله به ؟ و يجيب ثمامة وفق فطرته ، و المفاهيم التى استقرت و سادت فى زمانة و عصره ، **فيقول** :

" **عندى يا محمد خير . إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت** " .

إن الرجل يطرح الخيارات الثلاثة : القتل ، المنّ ، الفداء ، ولكل خيار من هذه الخيارات وجهه و منطقته و حيثياته وفقا لمفهوم ثمامة ، ومفهوم زمانه ، وهو ما استمع إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – أول مرة ، ولم يعلق عليه ، ثم سمعه ثانية و ثالثة .

رجل من بنى حنيفة -٢

فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه - كشف لنا قصة أسر ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ، من بنى حنيفة ، ورأينا كيف كان يردّ على النبى - صلى الله عليه وسلم ويكرر إجابته :"**إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت** " .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : "**انطلقوا بثمامة**" فانطلقوا به إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ .

ووالله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الأديان إلىّ .

ووالله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ .

وإن خيلك أخذتنى ، و أريد العمرة ، فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و أمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبأت . فقال : لا .

ولكن أسلمت مع محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

....

من يدرس تاريخ الإسلام ، وخاصة فى مرحلة البعثة ، و يرى مواقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع المشركين و الكافرين و المنافقين ، يتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام هو الذى يفرض نفسه على القلوب و العقول ، وأن ما يفتريه بعض الظالمين المتعصبين عن نشر الإسلام بالسيف ، هو فرية لا أساس لها من الصحة تاريخيا أو واقعياً .

إن الحروب التى خاضها الإسلام كانت دفاعاً عن وجوده ، وتأمينا لأتباعه وترسيخاً للأمن فى ربوعة ، ولم تكن لإرغام الناس على الدخول فى دائرته ، والبحث عن الغنائم وإيذاء المخالفين كما يزعم المفترون المتعصّبون ..وها نحن نرى محمداً – صلى الله عليه وسلم – يترك لثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة وزعيم بنى حنيفة ، أن يختار ويقرر ليس من أول مرة ، ولكن بعد مرات ثلاث ، يقول فى كل منها :

" **إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت** " .

إن الإنعام المقصود فى كلام ثمامة ، هو المنّ ، أى الإفراج عنه بعد الأسر ، وتركه يعود إلى أهله وقومه .....وهذا الإنعام يستوجب الشكر ...والشكر سلوك يحبذه العرب وأقره الإسلام . فكل من يحسن إليك يستوجب الشكر .

" **من أسدى إليكم معروفاً فاشكروه** " ...بل إن الشكر فى الإسلام يأخذ أبعاداً أعمق تصل إلى العبادة ، حيث نحمد الله ونشكره فى صلاتنا وقيامنا على ما يسديه إلينا من نعم لا تحصى ، ومعروف يمتّد بامتداد الزمان والمكان .

أما القتل الذى أشار إليه ثمامة ، فهو القصاص من القاتل ، أو الثأر للقتيل ، وطالما أن الأسير مطلوب قصاصاً فلا لوم على النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا قتله قصاصاً واشتفاءَ منه ...

وإذا كان المنّ والقتل يمثلان الخيار الأول والخيار الثانى ، فإن الفداء هو الخيار الثالث ، ومعناه ، أن يقوم أهل الأسير بدفع فدية من المال يقبل بها المسلمون كى يطلقوا سراحه .

وقد آثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – الخيار الأول ، وهو الإنعام ، أى المنّ على ثمامة وإطلاق سراحه ، وهو ما جعله من خلال معايشته للمسلمين ، يؤثر الإسلام ويعلنه لقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه : "**انطلقوا**

بثمامة " وذهبوا به إلى نخل قريب من المسجد ، حيث اغتسل ودخل المسجد ، ونطق بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن محمداً رسول الله .

هكذا دخل صحابى جديد إلى دائرة الإسلام السمحاء ، بعد أن كان معادياً شديد العداء للإسلام و المسلمين وأعلن عن مشاعره صراحة قائلاً : يا محمد و الله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ .

ووالله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الأديان إلىّ .
ووالله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ ...

وهنا نراه يحب محمداً بعد بغض ، ويحب دينه بعد بغض ، ويحب بلده بعد بغض ...مسجلاً مشاعر إنسانية حقيقية ترتبط بالصراع بين الحق و الباطل ، وتؤكد على أن الرجل الذى يفىء إلى الحق هو رجل مكتمل المشاعر و العواطف ، لا يكتمها ولا يخفيها مهما كانت حادة أو عنيفة ...وتؤكد فى الوقت ذاته على حب الإنسان للإنسان الذى هو نبى وحب الإنسان للدين الذى هو العقيدة، وحب الإنسان للبلد الذى هو الوطن..وهو حب مشروع لمن يملك المشاعر الإنسانية الحقيقية .

لقد تمنى ثمامة أن يعتمر. فبشره الرسول – صلى الله عليه وسلم – و سمح له أن يعتمر؛ وفى مكة قالوا له : صبأت ، أى رجعت عن دين آبائك وهو الوثنية . ولكنه أفحمهم قائلاً : لقد أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .رضى الله عن ثمامة والصحابة أجمعين .

مجلس العلم

مجلس العلم

عن أبى واقد الليثى – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بينما هو جالس فى المسجد والناس معه، إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذهب واحد.

قال: فوقفا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً.

فلما فرغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – **قال**:

"ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه".

(حديث صحيح: أخرجه البخارى و غيره)

....

تقدم لنا القصة النبوية الشريفة ثلاث شخصيات تقف موقفاً متباينا من العلم ومجالسه. وهذا الموقف يكشف لنا بالضرورة أهمية العلم ونظرة الإسلام إليه. فمجلس العلم من المجالس التى تفضل العبادة أو صلاة النوافل، وجمهور العلماء يذهب إلى أن العلم عبادة، وبعض المذاهب الفقهية تذهب إلى كراهية التنفل فى أثناء خطبة الجمعة وعند وجود حلقة علم وسماع الخطبة، وحضور الحلقة والاستفادة بالعلم، أفضل من صلاة النافلة.

والشخصيات الثلاث التى رأيناها فى هذا الحديث دخلت المسجد، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجلس فى حلقة علم، يعظ الناس ويشرح لهم الدين، رأى أول الثلاثة مكانا يستطيع الجلوس فيه فجلس. أما الثانى فلم يجد مكاناً فى الحلقة؛ فجلس خلف الجالسين ليستمع ويتعلم. بقى الثالث ينظر، وكأنه استراح لعدم وجود مكان مريح فى الحلقة، فأخذ نفسه وأدبر ذاهبا، أى خرج من المسجد ولم يجلس للاستفادة من علم رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

إن الإسلام يعطى للعلم والعلماء مكانة كبيرة، ويحض على التعلّم والمعرفة بأنواعها كافة وأشكالها، ولعل هذا ما جعل أول آية فى القرآن الكريم تنزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – ترتبط بالعلم والمعرفة.

"ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ"

(سورة العلق الآيات من ١-٣)

وهذه إشارة واضحة تدين المتحاملين ضد الإسلام الذين يزعمون أن الإسلام ضد العلم وضد المعرفة، ويقولون - وحسابهم على الله – إن التدين ظلام وتخلّف! وما دروا أن العلماء الحقيقين هم الذين يعرفون الله ويخشونه.

قال تعالى :

".....إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا....." (سورة فاطر من الآية ٢٨)

وهذه الخشية تقوم فيما يبدو - والله أعلم - على التراكم المعرفى الذى يُشعر العالم بعظمة الخالق سبحانه ووحدانيته و هيمنته على الكون .

وتاريخ الإسلام ينبئ لأى قارىء مبتدئ أن التراث العلمى الذى تركه المسلمون قديما، بل حديثاً، تراث حافل، ونسمع الآن عن علماء مسلمين فى كل المجالات العلمية الحيوية، يقومون بأبحاثهم ودراساتهم عبر أنحاء العالم ، ويجدون من التقدير والاحترام ما لا يجدونه في بلاد المسلمين ذاتها ..

الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحدثنا عن النفر الثلاثة وموقف كل منهم من العلم و طلبه فيقول : " **أما أحدهم فأوى إلى الله ، فآواه الله** " .

وتأمل دلالة "**الإيـواء إلى الله**" أى اللجوء إليه ، وكأن اللجوء إلى العلم و المعرفة لجوء إلى الله ، يستحق صاحبها أن يجازى عليه بإيواء الله له . هذا الرجل وجد فرجة فى حلقة العلم حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجلس فيها متشوقاً للعلم و المعرفة ، فكان جزؤه أن آتاه الله خيراً كثيراً وضمه إلى رحمته ورضوانه ، وهو ما يؤكد على أن ثواب العلم لا يقل عن ثواب العبادة . وكان السلف الصالح من العلماء السابقين يحتشدون لمجلس العلم سواء كان فى حلقة أو فى كتاب أو فى سماع و تلقين ؛ احتشاداً يليق بالعلم ، بدءاً من الوضوء والتنفل و قراءة بعض القرآن الكريم ، ليكون ذلك أدعى إلى الفهم والوعى والتثبيت والاستيعاب . وكان بعضهم يربط العلم والقراءة والتاليف بقيام الليل حتى يكون أكثر صفاء و نقاء واستعداداً للتلقى و العطاء .

الشخصية الثانية ، هى الشخصية الحيية الخجول ، رأى الحلقة قد اكتملت ولا مكان بين أفرادها ، فجلس خلفهم ، طمعا فى الاستفادة من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلمه ، ولم يجد حرجاً فى الجلوس فى الخلف ، لأن العرب كانت لهم تقاليدهم فى المجالس ، وترتيبها ، وتنظيمها وفقا لقواعد إجتماعية ، لعلها لا تتضح الآن فى بعض البيئات العربية ، ولكنها فى ذلك الحين ، كانت واضحة وراسخة ، وتنبئ عن مكانة الجالسين ووضعهم الاجتماعى .. فحين يأتى هذا الرجل و يجلس فى الخلف من أجل العلم حياءً ، فإن الله يستحى منه ، ويجزل له ثوابه كما فعل مع سابقه .

أما الثالث ، فقد غلبت عليه طبيعته الإجتماعية ، فأنف من الجلوس خلف الناس وترك مجلس النبى -صلى الله عليه وسلم- و أعرض عنه ، فأعرض الله عنه، ويا ويل من يعرض الله عنه فهو محروم من رحمة الله ورضوانه وثوابه ..فسأل الله أن يجعلنا طلاب علم دائماً و أبداً ، وأن يفقهنا فى ديننا ودنيانا . وهو سبحانه ولى التوفيق .